وزارة التعليم العالي والبحث العلمي المادة : التداولية

جامعة الانبار – كلية الآداب أستاذ المادة : أ.د. علي حسين

قسم اللغة العربية - الدراسات العليا (الدكتوراه / لغة) (٢٠١٩ - ٢٠٢٠)

الفصل الثاني

(المحاضرة : الخامسة)

خصائص الدرس التداولي في الخطاب التربوي "الحديث النبوي أنموذجا"

ملخص المحاضرة :

تروم هذه الدراسة إلقاء الضوء على الخصائص العامة التي يتميز بها الدرس التداولي ، حيث تهدف إلى إبراز أثرها في الخطاب التربوي ، وبالتحديد في الحديث النبوي الشريف، وبما أن التداولية تهتم بالجانب الاستعمالي للغة ، فكان التركيز على أهم موضوعاتها؛ مثل المفردات الإشارية ، ومتضمنات القول ، والحجاج ،وأفعال الكلام. وقد تبين أن هذه الإجراءات ساعدت على فهم الخطاب، والكشف عن قصيدته ،وأصالة فاعليته ،وتأثيراته في المتلقين. ولاغرو أن الدراسة التداولية للخطاب التربوي في الحديث النبوي الشريف فيها تقريب للنظريات التربوية المؤسس لها من قبل علماء التربية.

تعد لغة الخطاب بصفة عامة الأساس الواقعي والهام في كل وضعية تبليغية ، كما أنها الوسيلة الأسمى والأكثر تأثيرا ، فحينما نحدد لمن سنبلغ ، وما هو مستوى حديثنا ، وما نوعية المعلومات التي نريد تبليغها ، نكون حينها قد حققنا شوطا كبيرا من النجاح ، ولا يأتي ذلك إلا بتضافر عناصر كثيرة تتعلق بلغة الخطاب ،لأن الخطاب هوة الحامل اللغوي لمقاصد المتكلم موجها إلى المتلقي وكون الخطاب يولد في سياق تخاطبي وبلغة مشتركة ، فهو يقوم على عدة أسس تضبط العملية التخاطبية ، حيث أنبرت اللسانيات التداولية لدراسة علاقات البنية اللغوية بالمتكلم والمخاطب ، أي المعاني التي تدور في فلك الحوار ودائرة التخاطب، وتعمل التداوليات بحكم كونها لسانيات ذات اهتمامات علمية ، على وصف أفعال الخطاب وتفسيرها؛ مرتكزة في ذلك على مجموعة من القواعد أو الآليات،أهمها: المعينات ،أو (المفردات الإشارية) (les deictique)ومتضمنات القول (les implicites)، والأفعال الكلامية (Les actes de langage)، والحجاج (argumentation)،وغيرها .

وعليه نسعى في هذه الدراسة للأفادة من هذه الآليات في استجلاء خصائص الدرس التداولي في تربويات صحيح البخاري ، وإثرها نتساءل :

_كيف للتحليل التداولي أن يكشف لنا عمق المعنى في ضوء علاقته بموقف الكلام ؟

_وهل لخصائص الدرس التداولي فاعلية البناء ، وتوجيه قصدية المبلغ لإنجاح الخطاب ؟

ومما لاشك فيه أن الخطاب التربوي في صحيح البخاري يتضمن الأثر التداولي بكل أبعاده ، لأنه خطاب تبليغي ، يحمل قصدا ، في سياق معين ، صادر عن ذات مبلغة (الرسول_صلى الله عليه وسلم) ، موجه إلى مخاطبين المفترض فهم قصد المتكلم ، فيحدث الأثر اللازم عنه ، ويتضح ذلك في :

١_المعينات:

وتعرف أيضا بالإشاريات، أو المؤشرات ، أوالمفردات الأشارية ، كما أطلق عليها اسم"المبهمات"وهي ألفاظ تحمل معنى الإشارة دون أن تدل على معين، "وهي ظواهر لغوية ترتبط مباشرة بالعملية التبليغية في الخطاب ، وتتجلى خصوصيتها التبليغية الاختلاف في إدراك مرجعياتها في الخطاب ، فالمبهمات تتمثل في ضمائر المتكلم والمخاطب و في ظروف الزمان والمكان،

وهي لاتشير إلى شيء ثابت في العالم ، ولا ألى أوضاع موضعية في المكان والزمان ، أنها تحيل دائما إلى حالة الخطاب الذي ترد فيه ." وتعد المعينات من أهم العناصر اللغوية التي يتحدد معناها في إطار المقام ، وتتفرع إلى أربع أنواع :

١_الضمائر: دالة على الشخص ، ولا تخلو من إبهام وغموض ، فلا بد من شيء يفسرها ويزيل إبهامها ، "والغرض من استعمالها وهو الاختصار والإيجاز،لأننا نستغني بها عن تكرار اسم أو جملة."

وتأخذ الضمائر دائما دلالات جديدة في كل وضعية تواصلية لأنها غير محددة الدلالة أصلا، ولا يخلو نص منها ، وحضورها في الخطاب النبوي له دلالات تربوية،مثل قوله:"لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَايحُبُّ لِنَفْسِهِ".

فالمعينات في هذا الخطاب :

ضمائر الغائب هو (مستتر) ،والهاء في (أخيه ونفسه)، واستعمال هذا الضمير لدلالة الغائب المعلوم ، فالخطاب موجه لكل شخص اتصف بالإيمان؛قد يكون أحد الصحابة ، أو أي أحد من عامة المسلمين ، وقد يكون لكافة متلقي الخطاب من المسلمين ، لذلك "فضمير الغائب المعلوم كبقية الضمائر ، لا بد من مرجع لفظي أو معنوي ، وإذا كان المرجع معنويا أي مفهوما من المناسبة أو السياق في غير ألفاظ سمي " القرينة المعنوية " أو " الغائب المعلوم " ." لذلك فدلالة الضمائر تحيل إلى معلوم ، وقد يدرك المتلقي تماما من المقصود بالخطاب ، كما يدرك مضمون الخطاب التربوي ، فهو موجه للحاضر "أحدكم " ثم يعدل عنه للغائب "هو" ، وهذا أوكد في تبليغ النصائح والإرشادات ، أن تخاطب معلوما ثم تكلفه بمضمون الخطاب ، فالحال دالة على الإنجاز في المستقبل، ومحفزة على الالتزام بتحقيق النتائج ، ونوضح هذا في ما يلي:

لا يؤمن أحدكم	حتى يحب	لأخيه	ما يحب لنفسه
ضمير معلوم	ضمير غائب	ضمير غائب	ضمير غائب

نفي الأيمان عنه يدفعه إلى إنجاز ما طلب منه وهنا يتحقق الغرض التداولي من الضمائر الواردة في هذا الحديث ، وفي كل وضعية تخاطبية تأخذ الضمائر دلالات جديدة ، حيث نرى في قوله . صلى الله عليه وسلم . : "(اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ)" . نجد ضمير المخاطبين "اتقوا" أنتم .

ثم ينتقل إلى ضمير المخاطب "تجد" أنت

فما يشار إليه في العالم الخارجي هو جماعة المسلمين ، أي معرفة المتلقّين الذين يقصدهم المبلغ ، فضمائر المخاطب يفسرها وجود المبلَّغين وقت الكلام ، فهي لم تعد مبهمة ، وخالية من أي غموض ، ولكن المعنى التداولي الذي نبحث عنه ؛ لماذا انتقل المخاطب من توجيه كلامه من جماعة "أنتم" إلى مفرد "أنت" ؟ ما نلاحظه في هذا الخطاب الانتقال من الجمع إلى المفرد دليل على الاهتمام ، ويرجح أن الإفراد للتخصيص ، والجمع للعموم ، لكن الإفراد يعطي خصوصية ؛ فوضع الواحد موضوع الجماعة اتساع في اللغة ، لذلك إذا حللنا ما سبق تداولي نلحظ ما يلي :

ـ خطاب الجماعة "اتقوا" التماس كل أنواع الخير لتجنب النار .

ـ فضمير المخاطبين "أنتم" مطالبين بتقديم أقل شيء (شق تمرة).

ـ خطاب المفرد "فإن لم تجد" القلة منهم لا يملكون شيئا ماديا .

ـ فضمير المفرد "أنت" لا يستثنى من المطالب ، فيقدم كلمة طيبة . ومن المعينات نجد أيضا:

١-٢-أسماء الإشارة : وهو ما وضع لمشار إليه ، وعرفه ابن الناظم: "اسم الإشارة ما دل على حاضر ، أو منزل منزلة الحاضر ، وليس متكلما ، ولا مخاطبا . وكما لاحظنا من هذا التعريف فهي من المعينات التي تصنف ضمن ضمائر الحضور ، لأنها تحيل على حاضر في وقت الكلام ، كما تدل على استحضار الذوات أثناء الخطاب ، ويرى هادي نهر "أن الغرض الحقيقي من استعمال ألفاظ الإشارة إنما هو للاستعاضة بها عن تكرار الأسماء الظاهرة أو الجمل ، فهي كالضمائر من سمات التعبير الموجز .

فعندما يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (تَجِدُ منْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ ذَا الوَجْهَيْن ، الَّذِي يَأْتِيَ هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ) .

فاسم الأشارة "هؤلاء" دال على الجمع ، يحمل معنى الضمير ، وجاء عوضا عن لفظ(الناس)، وذلك تجنبنا لتكرارها في الخطاب ، كما أضفى على الجملة نوعا من التقسيم ، "هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه" ،كذلك تمثل هذه المعينات درجة من درجات الحليل التداولي ، حيث تظهر مدى حضور المبلغ في الخطاب عندما يوضح للمتلقين صفة ذي الوجهين ، وعمله يندرج ضمن عمل المنافقين ، الذين لا قرار لهم ، ولا يؤتمن جانبهم ، فال القرطبي : "إنما كان ذو الوجهين شر الناس لأن حاله حال المنافق ، إذ هو متمّلق بالباطل ،وبالكذب ، مدخل الفساد بين الناس ،وقال النووي : هو الذي يأتي كل طائفة ما يرضيها ، فيظهر لها أنه منها ومخالف لضدها ، وصنيعة نفاق ومحض كذب وخداع وتحيل على الاطلاع على أسرار الطائفتين ، وهي مداهنة محرمة"

ولاتقل أهمية الإشارة عن أهمية الضمائر ، يقول محمد خطابي : "المبدأ العام الثاوي خلف الإشارة وهو جعل الخطاب متماسكا من خلال استحضار عنصر متقدم أو خطاب بأكمله ."

ويرد اسم الإشارة اختزالا للكلام واقتصادا للجهد ، واجتنابا للتكرار ، خاصة إذا كان النص السابق عناصر إشارية معجمية ، أو تمثل مجموعة من المتواليات .

<u>اسم الموصول</u> : اسم الموصول يربط السابق باللاحق ويحيل إليه ، ويعوضه ويختزله ، ويمكننا ملاحظة هذا من خلال الحديث الشريف الموالي : قال الرسول_صلى الله عليه وسلم _ :" الَّذِي تَفُوتُهُ صَلاَةُ الْعَصْرِ كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ ". فدلالة اسم الموصول " الذي" لا تتم إلا بوجود الصلة " تفوته " ، فتصبح الجملة معلومة لدى المتلقي ، والموصول " من الأدوات التي تشد من أرز الكلام النحوي بين ما تقدم ذكره ، والعلم به ،وما يراه من المتكلم أن يعلم به ، أو يضمه إلى ما سبق من العلم به . فيشير الموصول في الخطاب السابق إلى ما هو معلوم ، ويقصد منها " المصلي المتهاون في صلاته " ، فهذه الإشارة مرتكزة

على سياق تداولي ، يحمل معنى التحذير من تأخير صلاة العصر لما لها من خصوصية لدى المؤمن ، فدلالة المشار إليه حاضرة في ذهن المتلقي ، ويعلم العواقب المترتبة عن ذلك ، فالمطلوب بعد ذلك الاستجابة. وهي صلاة العصر في وقتها .

وهذه الأسماء تأخذ دائما دلالة جديدة في كل وضعية تواصلية جديدة لأنها غير محددة الدلالة أصلا ، ولا يخلو نص منها .

١-٤- <u>أسماء الزمان والمكان</u>: وهي من المعينات التي لا يتضح معناها إلا من خلال السياق الذي وردت فيه ، وتنقسم إلى إشارة زمانية ، وإشارة مكانية ؛

١-٤-١- <u>الإشارة الزمانية :</u> وهي معينات لغوية تدل على زمن معين يحدده السياق قياسا إلى زمن التكلم الذي يشكل مركز الإشارة الزمنية في الكلام ، ومعرفة لحظة التكلم يجنب المتلقي الالتباس والغموض ، وتساعده على فهم الخطاب فهما صحيحا ، فهي المرجع الذي يحال عليه ، فألفاظ الزمان : اليوم ، وغدا ، وأمس ، وبعد حين ، لا يستطيع السامع ضبطها زمنيا ، إلا بمعرفة لحظة التلفظ قياسا بزمن التبليغ ، وهو " الزمن الذي يتحدد فيه الحدث الذي هو إنتاج الملفوظ ، ويمكن الإشارة إليه داخل الملفوظ نفسه ، ومن بين الكلمات التي تؤدي هذه الوظيفة نذكر ..الآن ، واليوم..." وعلى المتلقي معرفة زمن التلفظ ليتخذها مرجعا يحيل إليه ، ونجدها في الخطاب النبوي ، يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم : " لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال . ندرك أن لفظة "ثلاث ليال" إشارة زمنية ، تدل على زمن النهي وعدده ، وقد حددها بهذا الزمن ليدرك المتلقي أن الهجر لا

يجب أن يتجاوز هذا المقدار من الزمن ، " قال النووي: قال العلماء تحرم الهجرة بين المسلمين أكثر من ثلاث ليال بالنص وتباح بالمفهوم ، وإنما عفي عنه في ذلك لأن الآدمي مجبول على الغضب ، فسومح بذلك القدر ليرجع ويزول ذلك العارض ... " فالإشارة الزمنية حددت للمتلقي مقدار الهجرة ، ووضعت ذلك في أطار زمني معين ، ولولا ذلك لوجد المبلَّغ مشقة في تحمل ثروته النفسية ، وأصبح من الصعوبة الأستجابة لرسالة المبلغ لو توقف عند جملة : "لا يحل لرجل أن يهجر أخاه" ، وبتحديد المرجع الزمني استطاع المتلقي أن يؤول الخطاب تأويلا صحيحا لخدمة الغرض التربوي . وخلاصة ذلك أن المعينات هي أشارات مبهمة ولايتحقق مدلولها التداولي إلا في سياق الخطاب ، وقد مثلنا لذلك ببعض العينات من الخطاب التربوي مستقاة من صحيح البخاري ، وعرفنا أنها مجموعة من العناصر اللسانية تحدد الظروف الخاصة للخطاب ، وتحيل ألى أطراف التواصل من مبلغ ومتلق ،وتتضمن كل الضمائر وأسماء الأشارة ، وأسماء الموصل ، وظروف الزمان و المكان ، وغيرها.

٢-متضمنات القول :

يشكل التضمن عنصرا من عناصر الجملة ولكنه لا يضهر على مستوى السطح ، وإنما يبقى غائبا عن الملفوظ ولا يمكن اكتشاف إلا عبر مجموع من الاستدلالات المنطقية التي تنقل المخاطب من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني ،و" والوصول إلى طبيعة متضمنات القول لن يتم دون معرفة قوانين الخطاب ، بمعنى آخر أن نفهم الجانب الضمني والخفي من الكلام يستلزم منا أن نكون على معرفة ضمنية بالقواعد التي من شأنها أن ينتظم بها الكلام." فنجد المخاطب في بعض الأحيان لا يريد أن يصرح بمعنى الملفوظ لأسباب عديدة ."قد يكون مصدرها المجتمع بما يحويه من أخلاق وعادات ودين ، أو سياسة... وقد يتجلى ذلك في وجود بعض الألفاظ المحاطة "بقانون الصمت " يمتنع المتكلمون عن التصريح بها." ويندرج ضمن هذا العنصر نمطان من متضمنات القول : الافتراض المسبق والقول المضمر .

ـ الافتراض المسبق: ويسميه "طه عبد الرحمن" الإضمارات التداولية ، "وهو ذو طبيعة لسانية ، بمعنى أنه يتم إدراكه عن طريق العلامات اللغوية التي يتضمنها القول ." ويشكل خلفية ضرورية لنجاح العملية التبليغية ، وهو متضمن في القول ؛ سواء تلفظ به إثباتا أو نفيا ، ويرى التداوليون أن الافتراض المسبق ذو أهمية قصوى في عملية التبليغ ،وله دور أساس في تقديم معلومات جديدة للمتعلم ، فلا بد أن تكون له خلفية ننطلق منها ، في حين يؤدي افتقاره إلى فشل عملية التبليغ ، ونقف على بعض الأحاديث النبوية تحمل أبعادا تلميحية حيث تظهر في شكل افتراضات مسبقة ، يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "لايُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ".

إذا تتبعنا الأثر التداولي للفعل التبليغي في هذا الخطاب التربوي فأننا نقف في البدء على الافتراض المسبق للفعل "لايؤمن أحدكم"فماذا يفترض فهمه من هذا القول ؟

فلفض "لايؤمن أحدكم" مؤداها أن المتلقي يدرك كنه الإيمان ، ويعرف أهميته في حياته الدينية ، كما يعلم أن نفيه عنه فيه ضياع وخسران . ومن جهة أخرى فالمبلغ أيضا يدرك كنه الإيمان ، ويعلم ما تعنيه هذه اللفظة بالنسبة للمتلقي ،لذلك حرص على الابتداء بها تنبيها لأهمية الفعل التربوي ، وهنا نقف على أهمية هذا الجانب من الافتراضات المسبقة لأنها ذات أهميه قصوى في عملية التواصل والتبليغ ، فلا يمكن إعطاء معلومة للمتلقي إلا بافتراض وجود أساس سابق يتم الانطلاق منه والبناء عليه ، وهنا لايلزم المبلغ أن يضهر للمتلقى بأنه مؤمن ، كما لايتوجب على المتلقى أن يظهر للمبلغ أنه مؤمن ، لأن صيغة "لا يؤمن أحدكم" تفترض أن يكون كل من المتكلم والسامع على علم بكنه الصيغة الخطابية ، لذلك فالافتراض المسبق هو ما يقتضيه اللفظ ويفترضه

نوضح ذلك في الشكل الآتي :

الافتراض المسبق للفظ (لا يؤمن أحدكم)

المبلغ يخاطب مؤمنا المتلقي يعلم أنه مؤمن

تحقيق الفعل التبليغي ؛ لأنه انطلق من افتراضات متفق عليها .

فالنفي للكمال والتمام ، وليس نفيا لأصل الإيمان ؛ فالأثرة وحب النفس تنقص الإيمان ، لذلك فالفعل المتضمن في القول هو النصيحة التي تستلزم محبة المرء لأخيه مايحب لنفسه ، "وقال بعض الناس : المراد بهذا الحديث كف الأذى والمكروه عن الناس ، وشبه معناه قول الأحنف بن قيس قال : كنت أذا كرهت شيئا من غير لم أفعل بأحد مثله".

كما يستلزم هذا الفعل التحذير من الحسد ، فالحسد لايحب لأخيه ما يحب لنفسه ،

"والمحبة هاهنا هي مجرد تمني الخير لأخيه المسلم ، فلا يعسر ذلك إلا على القلب السقيم غير المستقيم"

كذلك التحذير من الأفعال الذميمة ، والحث على الأخلاق الكريمة ، "قال الكرماني : ومن الإيمان أيضا أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر ، ولم يذكره لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه ، فترك التنصيص عليه اكتفاء" .

ويتأسس الفعل التبليغي في هذا الخطاب التربوي على ما يلي :

_التحذير والترهيب من الأخلاق الذميمة لأنها تنقص الإيمان وتضعفه .

_التعبير بالأخوة لإثارة كوامن الشفقة والمحبة .

_الحث على التواضع ، والسعي وراء أسباب المحبة بين الناس.

_الدعوة ألى صفاء القلوب ، والابتعاد عن الأثر والأنانية .

ونتوصل إلى النتائج التي لم يصرح بها المبلغ ولاكن دلت عليها الافتراضات المسبقة بعد فهمنا لدلالة الخطاب نفيا وإثبات (لا يؤمن -يؤمن) وجمل ما نتوصل إليه من مفهومنا للأفتراض المسبق ؛ أنه يدعم العملية التبليغية ، فلو انعدم هذا العنصر لما استطاع المبلغ أن يوجه خطابه للمستمع ، ولما تمكن من التأثير فيه .

٢.٢.القول المضمر: بعد تناولنا للافتراض المسبق الذي تبين لنا أنه وليد السياق الكلامي ، نأتي إلى النمط الثاني من متضمنات القول ؛ وهو القول المضمر ، الذي تحدده ملابسات الخطاب ، "تقول "أوركيوني" : ((هو كل المعلومات التي يمكن للكلام أن يحتويها ، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث)) ، ويلجأ المبلغ إليه لأسباب كثيرة ؛ تتعلق بللياقة ، أو لمعالجة بعض الأخطاء وقع فيها الناس ، فيفضل التلميح دون التصريح ،"أضف إلى ذلك أنه في مقامات عديدة يضطر إلى استعمال متضمنات القول خشية ، من خرق بعض العادات الكلامية الاجتماعية ، إذ يلجأ إلى استعمال الحيلة ليضمن عدم جرح مشاعر المستمع." ومثل ذلك نجد الرسول_صلى الله عليه وسلم _ يقول:"مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَ بْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلاَتِهِمْ " فَاشْتَدَّ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ حَتَّى قَالَ :" لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءَ فِي صَلاَتِهِمْ " لقد استعمل النبي _عليه السلام_ لفظ"ما بال أقوام " في خطابه لجماعة المسلمين ، فلم يوجه كلامه للمخطئين مباشرة أنما أضمر كلامه ، ولم يشهر بهم ، تجنبا للأحراج ، وهذا أسلوب تربوي يساعد على حفظ السرية للمتلقين ، وهدفه تقويم سلوك الناس ومحاسبة النفس بأن يراجع المعني حساباته بينه وبين نفسه من غير انزعاج .

٣ــ الاستلزام الحواري : ويعد من أهم جوانب الدرس التداولي ، وترجع موضوعاته إلى محاضرات "بول غرايس" ، والمراد به إبراز ما يقال وما يقصد قوله ، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بحمولتها اللفظية ، وما يقصد هو ما يريد المبلغ أن يبلغه للمتلقي على نحو غير مباشر اعتمادا على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال ، كما أن عملية التبليغ تتم في ضوء"التعاون" ، ويرى غرايس أن كل حوار يقوم على هذا المبدأ تتفرع عنه أربع قواعد : (قاعدة الكم وقاعدة الكيف وقاعدة العلاقة وقاعدة الصيغة) تضبط التخاطب في المقامات العادية ، "فبين أن هذا المبدأ يوجب أن يتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف المرسوم من الحديث الذي دخلا فيه ، وقد يكون هذا الهدف محددا قبل دخولهما في الكلام أو يحصل تحديده أثناء الكلام." ومنه يفترض من المتلقي أن يظهر تعاونا ما لا يتصل بمقول قول المبلغ ، بل بما يقصده ، ونلحظ ذلك في النص الآتي: عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أتدرونَ ما المفلس ؟" قالوا المفلس فينا لادرهم له ولامتاع ، فقال : "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ ، وَصِيَامٍ ، وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»"

فعندما سأل المبلغ عن المفلس كان ينتظر إجابة أخرى هو يقصدها ، وليست الإجابة الحقيقية حول معنى لفظة "المفلس" ، وإذا استندنا إلى إجابة المتلقين نقول: بأنها خرقت مبدأ التعاون في فرع العلاقة ، أي: علاقة الخبر بمقتضى الحال ، وهي : ليكن إسهامك وارد في الحديث ، فالسؤال عن المفلس في الحديث لايتوقع منه المعنى المعروف والمتعارف عليه ، وإلّا أدى بنا ذلك إلى خرق قاعدة أخرى من قواعد مبدأ التعاون وهي : وهي قاعدة الصيغة التي تتعلق بشكل القول لتحري الوضوح ، ومن مقتضياتها : تجنب الغموض والالتباس ، وليكن كلامك بينا ومعلوما لدى المتلقي ، لذلك بين المبلغ المقصود للمتلقين حقيقة المفلس في نظره متجاوزا المعنى المعجمي للفظ ، والهدف التربوي من ذلك هو بيان مَن المفلس الحقيقي في نظر الإسلام ، وقد قام الاستلزام الحواري بإبرز مقصد المبلغ ، وتوضيح المعنى المطلوب " ، لذلك فالاستلزام الحواري يمثل مجموعة غير اصطلاحية ، فالكلام المتبادل بين الأشخاص ليس مجرد تصريحات من دون معنى يفتقر الى بنية نسقية ، ولكنه مجهود تعاوني يروم إلى تحقيق أهداف معينة" . فعندما أراد المبلغ أن يسأل عن معنى المفلس فهو يروم دلالة أخرى غير الدلالة اللسانية المتعارف عليها .

٤ــ الِحجاج : يعد الحجاج من الجوانب المهمة في الدرس التداولي ، إذ يرتكز التحليل في التداوليات على اللغة بصفتها نتاج بشري ، ولكي نتوصل إلى نتيجة إجابية لهذا التحليل علينا أن نأخذ بكل الأسباب والظروف المصاحبة للقول في بعده الاستعمالي ، سواء تعلق الظرف بالجانب اللغوي أو النفسي أو الاجتماعي أو الثقافي .

والحجاج "هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة ، أو إنجاز متواليات من الأقوال بعضها حجج ، وبعضها الآخر نتائج" وانبثقت نظرية الحجاج في اللغة من داخل نظرية الأفعال اللغوية التي وضع أسسها "أوستن وسيرل" ، وقد قام "ديكرو" بتطوير أفكار وآراء"أوستن"بالخصوص ، واقترح في هذا الإطار ، وإضافة فعلين لغويين هما فعل الاقتضاء ، وفعل الحجاج ". ، وتنطلق نظرية "ديكرو" اللسانية من ثلاثة مبادئ أساسية هي :

ــالمبدأ الأول: إن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج.

ــالمبدأ الثاني: إن المكون الحجاجي في المعنى أساسي ، والمكون الإخباري ثانوي.

ــالمبدأ الثالث : عدم الفصل بين الدلالات والتداوليات.

فالحجاج تقنية من تقنيات الخطاب ،والخطاب مجال من مجالات التداولية التي تساعد على الفهم الدقيق لمقصدية التواصل "فإن الإطار التداولي لعملية الحجاج تكمن في أنها تتدخل في آراء وسلوكات المتكلم أو المستمعين عن طريق التأثير فيهم " . وإذا عرضنا هذه التقنية على الخطاب التربوي ألفيناه يسعى إلى إبانة مقصدية الخطاب للتأثير في المتلقين باستخدام الدلائل العقلية

والعلمية ، بما له من بلاغة الإقناع ، والتداولية أقدر على تحقيق ذلك ، إذ إن وضعيات التلفظ في العملية الخطابية تساعد على إدراك كنه الملفوظ الحجاجي ، وعندئذ يمكننا أن نسميه بالخطاب الإقناعي وماورد في هذا المجال ما يلي :

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيصمت»"

نلاحظ تكراره لجملة "من كان يؤمن بالله واليوم الأخر"

ولايأتي التكرار إلا لغاية حجاجية ، وقد ذكر التكرار في هذا الخطاب أمام ثلاث قضايا أساسية تكوّن أخلاقيات المجتمع :

_القضية الأولى ← الإحسان إلى الجار .

_القضية الثانية ← إكرام الضيف

-القضية الثالثة ← الكلام الطيب.

فبتكرار الجملة السابقة فيها دلالة على أهمية هذه القضايا جميعا ، وقد وظّفه الرسول _صلى الله عليه وسلم _لأن المقام يتطلب ذلك ، ويحتاج الى توكيدها لدى المتلقين لترسخ في أذهانهم. والتكرار هنا فيه حث على الأعمال ، ونرى كيف صدّر هذا الخطاب بالشرط ، ليأتي الجواب بعد ذلك ويشمل القواعد الأساسية التي يريد أن يحث الناس عليها ، فكانت القضية الأولى والثانية متعلقتين بحقوق الناس ؛الجار والضيف ، فتحريم أذى الجار ، سواء بالقول أو بالعمل ، كذلك إكرام الضيف والإحسان إليه بكل ما نملك ؛ماديا ومعنويا ثم تأتي القضية الثالثة وتتعلق بخلق المسلم ، وهو كل ما يتلفظ به إذ يشمل ما ينطق به اللسان ، وما يتعدى نفعه إلى الغير وما يقتصر نفعه على صاحبه. ونستنتج من ذلك أن نفي الإيمان هنا لايراد منه النفي الحقيقي ، وإن نفي الاتصاف بالمؤمنين ، لأنه خالف الحق. والتكرار حجة معتمدة للتأكيد ومن مقاصدها التأثير والإقناع ، وهذا ما حققه هذا الخطاب التربوي ، فالمبلغ اتخذه وسيلة تربوية لإبلاغ مقاصد مهمة وضرورية في حياة المتلقين "ولم يكن التكرار في الحديث النبوي ناجما عن فقر لغوي ،ولاعن عجز في التعبير ،وإنما كان مقصودا متعمدا جاء ليحمل جزءا من معنى المراد ، وكان وسيلة من وسائل الدعوة وطريقة من طرائقها ، يستعمله النبي _صلى الله عليه وسلم_ إذا وجد ضرورة لذلك " ، وقد لاحظنا أن القضايا السابقة من الأمور المهمة لذلك كررها المبلغ لترسخ في الأذهان . وبهذا يكون المبلغ قد حقق الغاية من توظيفه لهذه الوسيلة الإقناعية ، كما يتحقق الهدف الذي سعى من أجله وهو إقناع المتلقي بالقضية .

٥_الأفعال الكلامية:

نشأت نظرية أفعال الكلام في ظل فلسفة اللغة على يد مجموعة من الفلاسفة ، هم :"جون أوستن"و"جون سيرل" و"بول غرايس" ، ينتمون إلى مدرسة "فلسفة اللغة "،كانوا مهتمين بالطريقة التي تعبر فيها اللغة الإنسانية الطبيعية عن المعاني ، كطريقة لفهم طبيعة الفكر والمنطق والتخاطب ، وأطلق عليهم (فلاسفة التخاطب) ، وتكمن أهمية هذه النظرية في كونها غيّرت النظرة التقليدية للكلام ونظرت إلى اللغة في بعدها الاستعمالي باعتبارها قوة فاعلة في الواقع ومؤثرة فيه ، "وأن استعمال اللغة ليس هو إنجاز فعل مخصص فقط ، وإنما هو جزء كامل من التفاعل الاجتماعي". وتحقق أفعال الكلام أغراضًا إنجازية تبليغية من لدن المتكلمين ، وغايات تأثيرية تخص ردود أفعال المتلقين ، وقد عُدّ الفعل الكلامي الوحدة اللغوية الصغرى للتبليغ وليست العلامة أو الجملة ،"وقد أتاحت تداولية أفعال الكلام لتحليل الخطاب منهجية لسانية جديدة ، من حيث إنها نظرت إلى الكلام الأدبي وغير الأدبي بوصفه فعلا لغويا ... يدل عليه قصد المتكلم ، من حيث إنها برهنت على إدراك المعاني الحقيقية للمنطوقات اللغوية إنما يتحقق في سياق الاتصال الفعلية". ولذلك فأن اللغة الأساسية ليست تبليغ المعلومات والتعبير عن الأفكار ، وإنما تحيل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقية إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية " ، وتقوم هذه النظرية على النظر إلى اللغة على أنها أداء أعمال مختلفة في آن واحد ، وما القول إلّا واحدة منها ، فعندما يتحدث المتكلم فإنه في الواقع يخبره عن شيء ، أو

يصرح تصريح ما ، أو يأمر به ،أو يلتمس ، أو يعد ، أو يشكر ..." ، والفعل الكلامي أداة إجرائية فعالة ، وتتميز عن الأفعال الخبرية ، ومما سبق نرى أن هذه النظرية ترتكز على القوة الإنجازية في أداء أفعال الحديث ، فبمجرد التلفظ بالقول ننجز فعلا ، ولقد وردت أفعال عديدة في صحيح البخاري متضمنة الفعل الكلامي مثل قوله ــصلى الله عليه وسلم: "لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهْوَ يَتْلُوهُ آناءَ اللَّيْلِ وَآناءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللهُ مَالاً فَهْوَ يُنْفِقُهُ آناءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ". فالفعل الإنجازي في هذا الخطاب مرتكز على النفي "لا حسد" ، "فالنفي في الحديث نفي انبغاء ، وليس نفي وقوع ، فهو واقع في عالمنا كثيرا في غير الاثنتين ، فالمعنى : لاينبغي ولايشرع ولايحمد الحسد إلا في اثنتين ... ، والمراد لا غبطة مشروعة إلا في اثنتين". ونرى قوة الفعل الإنجازي في هذا الخطاب تتحدد في قيمته الأخلاقية فقوله :"لا حسد إلا في اثنتين" تحددت أولويات التنافس الإيجابي ، فالمتلقي له مجالان للتنافس ؛ كسب العلم ، وكسب المال ، فهما قوام الحياة البشرية ومتحقق الفعل الكلامي إذا صرفت الأفكار والجهود والطاقات في هذين المجالين المتمثلان في أداء الخيرات والطاعات والأعمال الصالحات ؛ "رَجُلٍ آتاهُ الْقُرْآنَ. فَهْوَ يَقُومُ بِهِ آناءَ اللَّيلِ. وَآناءَ النَّهَارِ " يتلوه : يعمل به . فهو منشغل بقراءته ، وبحفظه ، وبتعليمه .

"رُجُلٌ آتاهُ اللهُ مَالًا ، فَهْوَ يُنْفِقُهُ آناءَ اللَّيلِ وَآناءَ النَّهَارِ" يتصدق منه في كل وقت . ينفق ماله في سبيل الخيرات.

فالأعمال التداولية للفعل الإنجازي :

-قراءة القرآن وتدبره.

- العمل به .
- تعلمه وحفظه ، وتفسيره وتدريسه.
- إنفاق المال في سبيل الله .
- جواز الغِبطة ومشروعيتها في أعمال الخير.

ومما سبق نلحظ أن الفعل الكلامي في الخطاب التربوي قد اهتم بالجانب الوظيفي ، إذ "تنطلق اللسانيات التداولية من مبدأ هام ؛ وأنها لسانيات كلام (تركز على الجانب الاتصالي والوظيفي)".

وفي ختام هذه الدراسة تبين أن توظيف العناصر التداولية في الخطاب التربوي قد أسفر عن نتائج تمثلت مضامينها في الآتي :

ـ فمن خلال توظيف المعينات مكنت المبلغ من التواصل الناجح بالمتلقين ؛ فجاءت الضمائر قصد الاختصار ، وطلبا للإيجاز ، وحضورها في الخطاب النبوي له دلالات تربوية حددتها الوضعية التخاطبية ، كما أسهم المعنى التداولي في إزالة غموضها ، أما استعمال أسماء الإشارة فيدل على استحضار الذوات أثناء الخطاب ، كما يسهم في تجنب تكرار الكلام ولا سيما ما سبق من متواليات ، ويفيد اسم الموصول ربط السابق باللاحق ، ويشير إلى ما هو معلوم ، ويتعاضد هذا والدرس التربوي ، وتتميز الإشاريات الزمانية بتحديد لحظة صدور الخطاب لتجنب الالتباس والغموض ، وتساعد على فهم الخطاب واستيعابه ، لأن الوظيفة التداولية لهذه الإشاريات تتمركز في معرفة زمن التلفظ قصد الإحالة إليه .

دلت متضمنات القول عن عناصر الخطاب الخفي ، الذي تدركه البصائر بمعرفة القواعد التي ينتظم بها الكلام ، ويتحقق ذاك في نمطين أساسيين هما : الافتراض المسبق ، والقول المضمر .

ويعد الاستلزام الحواري من أهم مكونات الدرس التداولي ، والمراد به إبراز ما يقال ، وما يقصد قوله ، وضمنه تتم عملية التبليغ وفق مبدأ التعاون الذي وضع أسسه "بول غرايس" ، إذ بيّن أن احترام هذا المبدأ بتعاون كل من المبلغ والمتلقي على تحقيق الهدف المنشود من الحديث. ومن العناصر البارزة في الدرس التداولي الحجاج ، فعلى إثره يتم تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة ودوره فعال في الخطاب التربوي ، إذ يساعد على الفهم الدقيق لمقصدية التبليغ ، ويحمل المتلقي على الاقتناع.

أما أفعال الكلام فهي لب التداولية ، والهدف منها التواصل إلى صدق الخبر وإفادته ، وجعل الكلام مناسبا للمقام ، وترتكز على القوة الإنجازية للفعل ، فبمجرد التلفظ بالقول ننجز فعلا ، وهذا ما يسعى الخطاب التربوي إلى تحقيقه . وقد تميز الدرس التداولي في هذه العينة من أحاديث صحيح البخاري بخصائص لسانية أسهمت في إنجاز مختلف الأبعاد التربوية للخطاب .